تقديم

نراهم بقلوبنا وعقولنا فكيف يروننا؟

لم يخطر السؤال في بال أيّ من المشتغلين بأدب الطفل وفنونه، ربما ليظل الاجتهاد والتجريب والمقاربة سيّد الموقف، ودافع الإبداع الأدبي والتوجه إلى الطفل الذي يريد الكاتب إيصال رسالته إليه.

نجرّب.. نحاول.. نتذكر ونعود إلى طفولتنا، وننسى، ربما، الاختلاف الحاد القائم بين الأجيال في تسارعه الرهيب، وسرعته المنطلقة بلا قيود ولا توقعات.

دخلت التكنولوجيا إلى عالم طفلنا فـ (تتكنج) تفكيرًا وانتماءً ولغة وخيالاً..

هل حدّت التكنولوجيا من خيال طفلنا؟ أم تراها أغنته وفتحت آفاقه على دروب غير مطروقة، وأسئلة غير مطروحة؟ كيف نربي طفلنا العصري المتوجه إلى عالم غريب عمّا اعتدناه وألفناه؟ وهل ما زالت حكايات الجدة، وقصص ما قبل النّوم، وقصص كليلة ودمنة، وبعض

خرافات ألف ليلة وليلة صالحة لطفل اليوم، كما كانت صالحة لجيلنا والأجيال التي سبقتنا؟

كيف نكتب للطفل؟

وماذا نكتب؟

وما الوسيلة الصالحة (الوسيط الفني) لإيصال ما نكتبه إليه؟

أسئلة تراودنا بإلحاح عنيد نحن المهتمين بأدب الطفل، ونحن نحمّله ما يحمله من قدرة على التغيير والتنوير والتربية والتعليم، لإيجاد الطفل الذي نريده وفق ثقافتنا الخاصة.

من هنا كان تحركنا في ندوتنا الأسبوعية المقدسية (ندوة اليوم السابع) حين قرأنا ما أنتجته قرائح الكتّاب ورؤاهم للطفل الذي خاطبوه، وكيف خاطبوه؟ وماذا أرادوا منه؟ وماذا أرادوا له؟

"الأطفال نصف الواقع وكل المستقبل"، و"خير استثمار هو الاستثمار في الأطفال" مقولات جميلة الدلالة، واضحة الغاية، نرددها دون التفات حقيقي مسؤول لتطبيقها، أو وقوف ذي معنى عندها.

فماذا أعددنا لمستقبلنا المنظور هذا؟ وكيف فهمنا تلك المقولة التي نرددها دون تأمل كاف يقود إلى قرع بوابة السكون والركون؟ سكون الإعداد المطلوب، فلا حركة، ولا جلبة تنبئ بورشات عمل حقيقية للوقوف على ما يمكن تقديمه، وعلى ما يجب تقديمه، وركون إلى مقولة

"ليس بالإمكان أبدع مما كان".. فليعيشوا مثلما عشنا، وليكبروا كما كبرنا، وليواجهوا مصائرهم مثلما واجهنا مصائرنا.

إنه المنطق التبريري العاجز الذي يلقي بالمسؤولية على أكتاف الظروف، والآخرين، والإمكانات التي لا تحسن إدارة الأولويات في سلّم المهمات التربوية.

لم يعد الطفل العصري في عالمنا المضطرب يحتمل المغامرة، ولا الإرجاء والركون إلى قواعد وأسس ومعايير وقيم متأصلة في المجتمع؛ لأن المجتمع نفسه ليس بعيدًا عن الواقع الجديد المتغير؛ لهذا كله لا بد من الانتباه الواعي الحذر إلى العالم الجديد بمعناه الثقافي.

إن بقاء جامعاتنا الفلسطينية بمنأى عن (أدب الطفل) يشير إلى عمق الهوة القائمة، وإلى عدم الالتفات إلى أدبه بالجدية المطلوبة الضرورية، ولعلها فرصة مناسبة لحثّ الجامعات على تدريس أدب الطفل برؤية إبداعية لغوية تربوية، تُعلّم الطفل فنّ السؤال، وتفتح أمامه آفاق المعرفة، وتدرّبه على حبّ الكلمة والمطالعة، وتعلي من تقديره لذاته المبدعة، ولذوات الآخرين بعيدًا عن أنانية التقدير.

وندوة اليوم السابع الثقافية الأسبوعية وهي تخصص جزءًا مهمًّا من نشاطها واهتمامها لما يصدر من أدب الطفل، ويصل إليها، إنما تحاول أن

تسدّ فراغًا فاضحًا يؤرّقها في هذا الجانب الذي لم يحظ بالرعاية المرجوة، فاجتهد روّادها، وعلّقوا، وناقشوا، وأبدوا آراءهم وتوصياتهم.

باختصار، لقد حاولنا أن نضع أنفسنا في ثوب الطفل نفسه، وأن نتقمّصه، ونعيش واقعه، وننظر بعينيه، فأبدينا إعجابنا باللغة الطفلية الجميلة التي تحترم وعي طفولتنا التي نتقمّصها. وأبدينا آراءنا بالرسومات المرافقة لأنها نصّ آخر داعم لما يكتب للطفل، وانتقدنا أغلفة الكتب أو أشدنا بالمناسب منها، وناقشنا الأفكار والرسائل التي أرسلها المؤلفون ممن وقعت رسائلهم بين أيدينا.

حاولنا أن نكون ذاك الطفل الذي ترنو الأبصار إليه، وتتلهف الأفئدة له.

لا نزعم بأننا قمنا بواجبنا كما نتمنى ونرجو ونأمل، ولكن يبقى لنا شرف المحاولة. وها نحن نؤكد على إحياء المحاولة، ونلفت الانتباه مجددًا لمن بين يديه مفاتيح الحل لكي لا يغلق البوابات.

فلا تغلقوا بوابات المستقبل الجميل، وإذا حدث وقررتم إغلاقها فلا ترموا المفاتيح بعيدًا، وانتظروا حساب ضمائركم حين تصحو من بريق زائف، وورم استسمنته ذات غفوة.

إبراهيم جوهر

(القدس 25 / 1 / 2012)